

انعكاسات مؤتمر فيينا 1815م على البحرية الجزائرية

The implications of the Vienna conference in 1815 on the Algerian

1- مبارك شودار*، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة الأغواط (الجزائر)

Mobarek.ch@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/05/03 تاريخ القبول: 2021/10/19 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

بنهاية الحروب الأوروبية ووأد المشروع النابليوني في حدود سنة 1815م أعادت الدول الأوروبية نظرتها للعلاقات التي تربطها بالإيالة الجزائرية، وقد كان مؤتمر فيينا بمثابة المنبر الدولي الذي عبرت فيه هاته الدول عن مكبوتاتها تجاه الإيالة الجزائرية (1830-1519)، وإعلان رغبتها في التخلص من الضغط الذي فرضته عليهم، وأجمع الحاضرون في هذا المؤتمر على ضرورة تهميش دور الإيالة الجزائرية (1830-1519) من القضايا المتوسطية، تحت حجة أن الإيالة الجزائرية (1830-1519) أحد الأطراف التي أعاقت تطور وازدهار الملاحة المتوسطية.

كلمات مفتاحية: مؤتمر فيينا، القرصنة، الأسرى، إيالة الجزائر، سيدني سميث.

Abstract:

With the end of the European wars and the annihilation of the Napoleonic project within the year 1815 AD, the European countries reconsidered the relations that bind them to the Algerian province. The Vienna conference was the international forum in which the European countries expressed their repressions towards the Algerian province and declared their desire to get rid of the pressure imposed on them. The conference on the need to marginalize the role of the Algerian eyelid from Mediterranean issues, under the pretext that Algeria is one of the parties that hindered the development and prosperity of Mediterranean shipping,

Keywords: Vienna Conference, Piracy, POWs, Ayla Algeria, Sidney Smith

مقدمة

في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، خضعت العلاقات السياسية المتوسطية إلى إفرازات الثورة الفرنسية وانعكاساتها، والتي حدّدت إلى حد كبير طبيعة العلاقات الجزائرية مع الدول الأوروبية، والتي اتسمت بطابع الهدوء والتحسين النسبي نتيجة الظروف الداخلية للدول الأوروبية، إلا أنه في نهاية الحروب الأوروبية، ووأد المشروع النابليوني في حدود سنة 1815م، أعادت تلك الدول نظرتها للعلاقات التي تربطها بالإيالة الجزائرية، وقد كان مؤتمر فيينا بمثابة المنبر الدولي الذي عبرت فيه الدول الأوروبية عن مكبوتاتها تجاه الإيالة الجزائرية وإعلان رغبتها في التخلص من الضغط الذي فرضته عليهم،

وأجمع الحاضرون في هذا المؤتمر على ضرورة تهميش دور الإيالة الجزائرية (1830-1519) من القضايا المتوسطية، تحت حجة أن الجزائر أحد الأطراف التي أعاققت تطور وازدهار الملاحية المتوسطية، وبذلك يكون هذا المؤتمر أحد المنابر الإعلامية التي صرحت فيها أوروبا علانية عن عداوتها تجاه الجزائر. وفي هذا الشأن قد بحث المؤتمر سبل وطرائق تهميش دور الإيالة الجزائرية (1519-1830) خصوصا، والإيالات المغاربية عموما من القضايا المتوسطية، ومحاولة إيجاد فضاء متوسطي أوروبي خالص،

وقد كان للسير سيدني سميث دور بارز عندما تمكن من إدراج القضية الجزائرية ضمن أعمال المؤتمر وقراراته، وذلك لما استطاع أن يندّد بأعمال القرصنة، واسترقاق المسيحيين وفق مذكرة قدّمها في هذا الشأن إلى المؤتمر، وقد نجح إلى حد كبير في استقطاب المؤتمرين للقضايا التي تخص الأمن

المتوسطي والملاحة البحرية، وتمكن بعد ذلك من إيجاد صيغة لتنظيم عمل مشترك أوروبي ضد الإيالات المغاربية. وقد تجسّد ذلك فعليا في حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816م، ثم البعثة الأنجلو فرنسية التي أعقبت مؤتمر إكس لاشايل سنة 1819م، وعليه يمكننا طرح الإشكالية التالية كيف عجل مؤتمر فيينا بتكتل الدول الأوروبية ضد الإيالة الجزائرية؟ وإلى أي مدى ساهم في القضاء على البحرية الجزائرية؟

أولا- أسباب تدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية

1.1 مسألة القرصنة:

تعددت الكتابات التاريخية حول القرصنة البحرية في العصر الحديث¹، وعليه كانت هناك عدة مفاهيم لها، غير أنّ تلك المفاهيم تتفق في جزء من ذلك عندما اعتبروها نوعا من الحروب البحرية بين مجموعة من الدول تختلف عن اللصوصية والنهب، لقد كانت تتم بواسطة السفن المسلحة التابعة لدولة ما، تكون مهمتها مواجهة ضد هدف معين، وبهذا المفهوم جعلوا القرصنة نشاطا بحريا خاضعا للإرادة السياسية للدول، وبذلك تصبح القرصنة والنشاط الاقتصادي لهما علاقة وطيدة إذ كانت تتم بواسطة تصاريح ممنوحة من طرف أصحاب الأساطيل، وعلى كل جهة تنظر إلى مفهومها من زاوية خاصة، فالمسلمون كانوا ينظرون إليها على أنها جهاد بحري، أمّا المسيحيون، فقد كانت لهم في هذا النشاط نظرتهم الخاصة².

لقد بالغ الأوروبيون في الحديث عن البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني من حيث الأوصاف التي وصفوا بها طائفة رياس البحر، فالدور الذي قام به هؤلاء في الواقع لا يعدو الدفاع عن النفس وحماية السواحل كنتيجة لما كان يجري من أحداث وتطورات في البحر الأبيض المتوسط.

لقد تضاعف نشاط القرصنة على ضفاف البحر المتوسط لاسيما في الحوض الغربي منه، كنتيجة مباشرة لتلك التطورات الحاصلة في بلاد الأندلس التي مست الملاحة البحرية. سواء بالنسبة للقرصنة المغاربية أو الأوروبية، فالأهداف والغايات لم تكن على قدر واحد، لذا فالإسبان والبرتغاليون كانوا السباقين للاكتشافات الجغرافية، على أنّ ذلك لم يشغلهم عن هدفهم الرئيسي، وهو محاربة المسلمين،

¹ - Belhamissi (M), *Histoire de la marine Algérienne 1516-1830*, Alger, Enal, 1983, p 67.

² - Père (Dan), *Histoire de Barbarie et de ses corsaires*, Paris, seconde édition, 1646, p300.

فقد استطاعوا القضاء على مملكة غرناطة سنة 1492م، وما تلا ذلك من تهجير قسري للموريسكيين من بلدهم، لقد كانت هذه الأحداث سببا كافيا لبداية حرب طويلة بين المسلمين والمسيحيين.

ويرى البعض بأنّ القرصنة شكّل من أشكال الحروب التجارية تعتمد على التقدم في تقنيات الملاحة، وتعد بذلك حربا اقتصادية بالدرجة الأولى، فالقائمون على هذا النشاط ينحدرون من أصول مختلفة، وبالتالي يمثلون ديانات متعددة أيضا، لذا لا يمكن حصر الظاهرة بدين أو حضارة دون أخرى، ومثال ذلك ما قام به فرسان مالطة في هذا المجال حيث شكلوا رعبا كبيرا على سواحل شمال إفريقيا لفترة غير يسيرة، ولذلك لم تكن القرصنة عملية إسلامية صرفة كما يدّعيه مؤرخو المدارس الغربية، ومهما يكن من أمر القرصنة، فإنّ المسلمين يعتبرونها جهادا بحرياً للذود عن سواحل شمال إفريقيا* والتصدي للأساطيل المسيحية التي كانت تستهدف هذه السواحل وتحاول فرض سيطرتها وإرادتها عليها.

لا ترتبط القرصنة بحضارة بذاتها أو بدين معين، فهي ظاهرة عامة سادت في عالم البحر المتوسط خلال العصر الحديث، ويرى بعض المؤرخين في ممارسة المسيحيين للقرصنة ضد الإسلام وأهله واجبا مقدسا للدفاع عن أوروبا، والبحوث التي درست القرصنة من هذا المنطلق تعد نماذج اسطوغرافية ذات دعاية لمركزية الغرب، في إطار الدعاية لتفوق الجنس الأبيض حضاريا، فالقرصنة المسيحية نصبت نفسها كشرطة بحرية لتنظيم حركة الملاحة البحرية من جهة، وحماية السواحل الأوروبية من الهجمات الأجنبية من جهة ثانية، وإذا كان الفارس المسيحي يحركه الإيمان والعدالة، فالقرصان المغربي تملّي عليه غريزته العدوانية الخوض في أعمال النهب والأسر حسب آرائهم.

*- للمزيد حول النشاط البحري المغربي ينظر حول البحرية الطرابلسية، ابن غلبون الطرابلسي: التذكار في من ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق وتعليق الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، المطبعة السلفية ومكتبتها، مصر، 1349هـ، ص 359؛ أيضا: أحمد بك النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني، ليبيا، د.ت، أما فيما يخص البحرية التونسية ينظر: محمد الهادي الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993م، ص ص 96-97، أيضا: خط همايون، عدد 39818، علبة 26، رقم 221، تاريخ 1238هـ، أما فيما يخص المغرب الأقصى ينظر: محمد المنصور: المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792-1822م)، ترجمة محمد حبيدة، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006، ص195.

ولم تسلم هذه الآراء من الانتقادات إذ ظهرت أبحاث أخرى، تفيد في تقريب المفهوم لهذا الاتجاه، إذ تقول بأنّ القرصنة ما هي إلا آلة صنعت لجمع الأموال بعيدا عن أعين البابا وحاشيته في فترات عديدة، فهذا العمل لا يخدم المسيحية بقدر ما يضرها بقوله: «... إنه من الأفضل للمسيحيين أن يهاجموا بعض الثغور الإفريقية عوض نهب ممتلكات السفن التجارية لأن هذه الممارسات لا تضعف الإمبراطورية العثمانية، بل تتسبب في تهبيج سلاطينها دون أن تلحق بهم أي ضرر».¹

2.1 القرصنة الأوروبية:

شجعت أوروبا عمليات القرصنة بتوفير الوسائل والأموال اللازمة لذلك، بغية إلحاق الضرر بدول شمال إفريقيا، وهناك إحصائيات تبين عدد الأسرى من سكان طرابلس الغرب وشرق الجزائر، الذين أُلقي القبض عليهم، وتم نقلهم إلى جزيرة مالطة وهي:

السنة	عدد الأسرى	السنة	عدد الأسرى
1764	204	1780	240
1770	02	1785	157
1775	94	1788	78

ويذكر أنّ النصارى قد أسروا حوالي 500 مسلم، أُلقي القبض عليهم في عرض السواحل التونسية فيما بين 1780 إلى 1789م، و468 مسلم، فيما بين 1790 و1798م، وساقوهم إلى مالطة.²

انطلاقاً ممّا سبق يتضح بجلاء أنّ القرصنة مارسها الأوروبيون على نطاق واسع، ولم تكن البتة تخص المسلمين وحدهم، لذا يتبادر إلينا سؤال مهم: من كان السبّاق للقيام بهذا العمل؟ حتى نستطيع إيجاد الفرق بين مصطلح القرصنة، والجهاد البحري الذي كان مشروعاً، ولم تجرمه أيّ شريعة سماوية. استطاع بعض القادة إرساء دعائم الدولة الجزائرية الحديثة عندما أصبحت الجزائر إيالة تتبع الخلافة العثمانية، وبدأت بالتصدي للهجمات الأوروبية على السواحل الجزائرية التي كانت مرتعاً للغزاة الإسبان، ولم يقتصر الأمر على سواحل الجزائر بل ساهم هؤلاء في تحرير السواحل التونسية والطرابلسية أيضاً في مرحلة لاحقة.

¹ - عبد المجيد قدوري: المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15-18م مسألة التجاوز، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000، ص342.

² - لوسات فلنزي، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر (1790-1830)، ترجمة حمادي الساحلي، سراس للنشر، تونس، 1994، ص79

قام الجزائريون كغيرهم بردة فعل تجاه الحملات الأوروبية، فالجهاد البحري الجزائري أملت الظروف السائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن هدف البحارة النهب والسلب، عكس المسيحيين الذين قاموا بنهب الشواطئ الإسلامية خدمة للصليب، لذا كان هدف الجزائريين هو حماية أوطانهم، وأما عمليات النشاط البحري، فكانت مهمتها تدمير أساطيل القرصنة التي تتعرض لسفنهم بالسوء، فالهدف من الاستيلاء على السفن الأجنبية كان استراتيجيا، ولم يكن للحصول على الغنائم¹.

3.1 النشاط البحري الجزائري

انتقل الجزائريون من حالة الدفاع خلال القرن 16م إلى الهجوم على سواحل شمال غربي المتوسط في مرحلة أولى، وفي مرحلة لاحقة امتد نشاطهم إلى المحيط الأطلسي، حتى وصلوا أعالي البحار على سواحل إنجلترا وإيرلندا وإيسلندا، إنَّ التحسينات التي ألحقت بالسفن الجزائرية قد سبغت عليها نوعا من الديناميكية من حيث السرعة والقدرة على التحكم فيها، لذا كانت جلّ عملياتها الحربية ناجحة².

لقد قابل الأوروبيون هذا النجاح البحري في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين بكل حزم³، فالقضية قد شغلت حيّزا كبيرا ضمن الكتابات الأجنبية المتعلقة بتاريخ الجزائر في الفترة نفسها، وقد أطلق هؤلاء أوصافا عديدة على البحرية الجزائرية للانتقاص من شأنها، فقد كانت مدينة الجزائر وغيرها من مدن إيالة توصف بوكر اللصوص وعش القراصنة، على الرغم من أنَّ البحرية الجزائرية قد قامت كغيرها من الدول البحرية بحققها في استغلال هذا المسطح المائي الهام وفق القانون الدولي والتقاليد المتعارف عليها.

ويعلق المؤرخ "كات" CAT" نقلا عن أرزقي شويتام على هذه القضية بقوله: «... قد رأينا خلال القرن 17م الهولنديين والإنجليز والبنادقة وفرسان مالطة والجنوبيين يحاربون البحارة الجزائريين، إلا أنَّ حماس الجزائريين المتزايد وصيانتهم الرائعة لأساطيلهم سمحت لهم بأن يصمدوا أمام الأعداء...» وبين في مقتطف

¹ - فاطمة الزهراء سيدهم: "موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة كان التاريخية، ع13، دار الكتب والوثائق القومية المصرية، مصر، 2011، ص27.

² - أرزقي شويتام، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي (الفترة العثمانية) 1519-1830 ط1. دار الكتاب العربي، الجزائر، ص54.

³ - Pere (D), op.cit, p300.

آخر من كلامه ما يلي: «... لم يقوموا وحدهم بالقرصنة بل هناك الإنجليز والهولنديون وأناس من مختلف الأمم كانوا يمارسون القرصنة ببشاعة وعنفا...»¹.

فالقرصنة التي شكلت مسألة إدانة واسعة للجزائر وحدها كانت أمرا مبالغيا فيه، وعلى ما يبدو أنّ القرصنة كانت ممارسة شائعة شاركت فيها جل الدول البحرية، ولعل نشاط الجزائريين البحري كان في معظمه ردود أفعال على حملات الأوروبيين، وقد أفصح بعض الرحالة الأجانب عما يختلج في نفسه تجاه النشاط الجزائري إذ يقول أحد الإنجليز ما يلي: «... إنه سمع عن القراصنة قصصا مرعبة، ويقارن بين أحفاد أولئك الذين حاربوهم (بربروس) وبين أحفاد الإنجليز المتحضرين...»².

والواقع أنّ استراتيجية الجزائر في بداية الأمر اقتصر على الدفاع لرد هذه الاعتداءات التي تطورت أهدافها إلى حركات التنصير، ثمّ إنّ هذه التحرشات اللامتناهية اكتست صبغة الحملات الصليبية، وعلى شكل تحالفات كبيرة، لذا بادرت الجزائر إلى الهجوم بدل الدفاع، وحملت طائفة رياس البحر على عاتقها ضرب أعشاش القراصنة الأوروبيين المتناثرين بشواطئ بلدانهم، ومن هذا المنطلق يعد نشاط البحرية الجزائرية في أساسه مقاومة للعدوان، ولو سلمنا بأنّ هذا النشاط كان قرصنة، ومخالفا للقانون الدولي في بعض الأحيان، فإنّ الأوروبيين قد سبقوا إليه، وهم من دفعوا بالجزائريين لسلوك هذه السبيل³.

مثل الأسطول الجزائري البحري الحاجز المنيع في وجه المشاريع الأوروبية لمدة قاربت ثلاثة قرون⁴، وكما أشرنا سابقا إلى أنّ ظاهرة القرصنة البحرية كانت ممارسة دولية إلا أنّ الدول الأوروبية مدعومة من طرف الكنيسة الكاثوليكية باركت بل وأجمعت على أن هذا النشاط هو حكر لأوروبا دون غيرها وعليه ستكون البحرية الإسلامية مجرد عمل لصوصي لفئة خارجة عن القانون⁵.

مثّلت هذه النقطة بالذات حجر الزاوية في علاقات الكنيسة مع البحرية الإسلامية عامة والجزائرية خاصة، وكرست جهودها لتوحيد الدول الأوروبية من أجل تحقيق الوفاق المنشود بينها في أحلاف وصفت

¹- أرزقي شويتام. المرجع السابق، ص55.

²- عبد الله الركيبي: الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز، ج1، دار الحكمة، الجزائر، د.ت، ص 209.

³- يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ص27.

⁴- Devoulx (Albert) « la marine de la Régence D'Alger », R.A, N°13, 1869, p381.

⁵- حنفي هلايلي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة 1815-1830م، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2007، ص10.

بالمقدسة، وقد برزت بريطانيا العظمى (سيدة البحار) التي تسيطر على جزيرة مالطة ومضيق جبل طارق، مستندة على القانون البحري الدولي الجديد الذي هو في الأساس قانون أوروبي، لتجسيد مخططاتها من أجل إضعاف البحرية الجزائرية، وإجبارها على التخلي عن ممارسة الجهاد البحري، إن التكتل من أجل فرض السيطرة الأوروبية أصبح حاجة ملحة أكثر من أي وقت مضى، لقد واجهت الجزائر هذا الأمر في تحد واضح وقاومته¹.

4.1 الأسرى (بين مفهومي العبيد وأسرى الحرب)

عندما يتطرق مؤرخو الغرب إلى تاريخ الجزائر في الشق المتعلق بالبحرية، نجدهم يتعرضون لذكر أعداد أسراهم بتفصيل كبير، وهذه الإحصاءات لا تخلو من تضخيم في الكثير من الأحيان، إذ لا يمكن التسليم بالتقديرات الرقمية بخصوص عدد الأسرى المستخرجة من المصادر الأوروبية، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل تعدى الاهتمام الأوروبي بعدد سكان الجزائر أيضا، ويشير أحدهم أنه في سنة 1578م بلغ عدد الأسرى قرابة 25 ألف أسير² وخلال القرن 17م ارتفع هذا العدد إلى 30 ألف أسير³ غير أن بداية القرن 18م، نرى تناقصا في أعداد الأسرى بالجزائر، فمن 10 آلاف سنة 1700م⁴ إلى 2000 سنة 1738م⁵، ثم يتأرجح هذا العدد بين زيادة ونقصان حتى سنة 1830م حيث تتضارب الإحصاءات بين 500 و 122 أسير فقط⁶.

¹- محمد العربي الزيري: "مقاومة الجزائر للتكتل الأوروبي قبل الاحتلال"، مجلة الأصالة، ع12، الجزائر، 1973، ص124.

²- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري. وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830. دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع الجزائر 2009، ص95.

³- حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1 دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2009، ص69.

⁴- وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زباديه، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص157.

⁵- ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية. دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص569.

⁶- حنفي هلايلي: المرجع السابق، ص69.

بيد أنه من المعلوم أنّ تعدادهم غير ثابت، فقد كان يتزايد ويتناقص من زمن لآخر كنتيجة حتمية لاضطراب العلاقات مع أوروبا من ناحية، ومدى تفوق أسطولها البحري في البحر المتوسط من ناحية أخرى، أما عن اختلاف الجنسيات، فقد كان هؤلاء الأسرى ينتمون إلى مجتمعات مختلفة اختلاف الأمم والدول، فكان منهم البرتغاليون والإسبان والفرنسيون والإنجليز والفنلنديون والهنغاريون والهولنديون وغيرهم¹.

ساهمت عمليات افتداء الأسرى الأوربيين في مداخل الخزانة الجزائرية، فكانت مصدرا مهما لذلك وقد اختلفت التسميات التي أطلقت على هؤلاء، فبينما اعتبرتهم الكتابات الأوروبية عبيدا، فقد كانوا أسرى حرب بالنسبة للجزائر وإيلات شمال إفريقيا.

وهناك من الأسرى الذين لا يتم اختيارهم كخدام في قصر الداى أو لا يتم بيعهم لرجال الأعمال يبقون موظفين تابعين للحكومة الجزائرية توظيفهم في أعمال أخرى، كبناء السفن أو أي صناعة أخرى²، وعليه تم تصنيف الأسرى في الجزائر العثمانية حسب المهن التي يشتغلون فيها، فكان منهم الحرفيون والملاحون والحمّالون والمكّفون بالأشغال العامة، فالحرفيّون مثل الحدّادين والبنّائين والنجّارين وصانعي الأشرطة يباشرون عملهم صباحا في ورشات مختلفة، أما الذين لا يزاولون أي عمل، فإنهم يقسمون إلى فرق، ويكلفون بالقيام بمختلف الأشغال، المتمثلة في شحن السفن، وتفريغها، ونقل الأحجار من المحاجر الواقعة على أطراف المدينة³، أما القنصليات والمستشفيات المسيحية وتكنات الجيش، فقد نالت حظها من عمل هؤلاء من أعمال الصيانة والتنظيف، وهناك من كان يستأجر للعمل في الحانات داخل السجن، فالكثير منهم كان يجمع المال ليفتدي نفسه.

كان يسمح للأسرى في الجزائر بصفة عامة بحرية محدودة، فقد كانوا يحتفلون بأعيادهم، ويمارسون شعائرهم الدينية بكل حرية، وكانت لهم مقبرة خارج باب الوادي يدفنون مواتهم⁴، ولكن بالمقابل نجد أنّ الكتابات الأجنبية أوردت بل وأسهبّت في وصف حالة الأسرى المسيحيين بإيلات شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة، فهذا الراهب دان يقدم لنا وصفا لحالة الأرقاء المسيحيين بقوله: «... فليست هذه هي

¹ -Belhamissi(M), *Alger L'Europe et la guerre secrète 1518-1530*, Alger, édition Dahlab, 1999, p43.

² -وليم سبنسر: المرجع السابق، ص156.

³ - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص202.

⁴ - أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص203.

المحن التي يعاني منها المستعبدون المساكين في تلك القوادم، لأنهم أيضا يموتون أحيانا بالعطش بعدما يذبلون في هذه الوضعية المؤسفة أياما عديدة...» ويضيف في موضع آخر «... يدفعونهم دوما إلى الإفراط في الاشتغال أكثر من اعتدال حقيقي تتناسب فيه القوة مع التعب بحيث لو لم يخشوا بفقدانهم لمستعبدتهم من ضياع المال المستثمر فيهم، لتركوهم بكل تأكيد يموتون من شدة الجهد على السماح لهم بأقل قدر من الراحة...»¹.

ويضيف هذا الراهب أمرا آخر يتمثل . حسب زعمه . في حرص البحارة الجزائريين على أسر المسيحيين، وقد بالغ في وصف معاملة الأسرى المسيحيين من خلال قوله: «... كلما ساروا عبر البحر يحرصون دوما على وجود أرقاء مسيحيين على متن مراكبهم، والذين هم في غالب الأوقات البحارة الذين يقودونها وللحظة قبل المواجهة يحبسون جميع المسيحيين ويكبلون الأيدي والأرجل أربعا بقضبان حديدية كبيرة تتدلى منها الأصفاد، وهو ما يبدو لهم وسيلة أكثر يسرا للتخلص من خشية قيام بعض الأرقاء بالتمرد عليهم أثناء النزال، وإذا ما حدث وأصبحوا أسياذ السفينة التي هاجموها، يأخذون منها كافة المسيحيين على الفور...»².

ولم تخرج الكتابات الأجنبية الأخرى على ما كتبه الأب "دان" بل وأيدته في مسعاه محاولة منهم لدفع النصرارى من أجل توحيد جهودهم ضد الخطر المشترك وهو الجزائر، ولعل أهم تلك الكتابات تلك التي أوردت قيام السلطات المغربية بأفعال غير إنسانية تجاه الرهبان وقتلهم أحيانا³، إذ كانت أغلب هذه الروايات مبالغا فيها، وذلك بغية الوصول إلى هدفين أساسيين وهما:

ضرب قوة الإسلام والمسلمين لإثارة الروح الدينية من أجل الحصول على التبرعات، الأمر الذي حدا ببعض الباحثين الأوروبيين إلى استنكار مثل هذه القصص الخرافية، وقد واجه هؤلاء الفرنسي "لوجي دوتاسي" *"laugie de Tassy"* عام 1724م حيث أنكر على رجال هذه التنظيمات الدينية المتعصبة والمغرضة مثل هذه الدعايات المفضوحة والمبالغ فيها، كما أبدى بعض الباحثين الأجانب بأن الأتراك

¹ - حسن أميلي: "معاملة الأسرى المسيحيين في كتاب برباريه وقراصنتها للأب بيار دان"، المجلة التاريخية المغربية، ع119، تونس، 2005، ص184.

² - حسن أميلي: "القراصنة ومعتقداتهم بشمال إفريقيا في كتاب بارباريا وقراصنتها"، المجلة التاريخية المغربية، ع115، تونس، 2004، ص169.

³ - ديكتو ديصوريس: تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1989، ص198.

العثمانيين المشار إليهم من طرف رجال الدين ليسوا بهذه البشاعة من اللاإنسانية التي لا تحكمها قوانين، محذرين من كل هذه القصص المسمومة التي يفتعلها رجال الدين ضد المسلمين الأتراك العثمانيين والجزائريين، وبرروا ذلك بطمعهم الشره في الحصول على المزيد من الأموال والهبات¹.

لذا نجد أنّ هناك العديد من الباحثين الأجانب قد فند هذه الأطارح المغرضة بقولهم: «... إن المغرب منذ فجر الإسلام حتى القرن الماضي غالبا ما كان يأوي ضمن دوله ومجتمعاته عناصر وفئات وجاليات من مختلف الأقطار الأوروبية، وخاصة من البلاد المتوسطية، إيطاليا، فرنسا وإسبانيا، ويكمن أن نقول بأنّ هذا الوجود لم يكن ينطوي على أي مظهر أو علاقة استعمارية...»².

أوضح وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر حقيقة عن الأسرى المسيحيين في الجزائر من خلال ظروفهم وحالتهم الخاصة إذ يقول: «... كانت سلطات الإيالة دائما تحميمهم من الأذى ومن سوء معاملة الأهالي، وإنه لمن الإنصاف القول بأنّ حالتهم هنا لم تكن أسوأ من أسرى الحرب الذين يقعون في أيدي البلدان المسيحية المتحضرة، والأشغال التي كان يطلب إلى الرجال القيام بها لم تكن مفرطة المشقة، والأسرى الذين يجدون كفيلا لهم يضمن عدم هروبهم كان يسمح لهم بحرية الخروج إلى حيث يريدون...»³.

وما يثبت هذه الاتجاه أنّ العديد من الأسرى المسيحيين قد شغلوا مناصب عليا داخل الإيالة الجزائرية، الأمر الذي مكّهم من كسب ثروات طائلة⁴ على الرغم من أنهم لا زالوا على دينهم، ويقر "كاثكارت" الأسير الأمريكي بالجزائر هذه الحقيقة حيث يقول: «... إن التقليد المتبع في الإيالة هو أنه حينما يحظى الباي أو الخليفة أو القائد أو سفير دولة أجنبية أو قنصل بمقابلة الداى، وتقدّم إليه القهوة التقليدية، يترك على صحن القهوة قطعة من النقود الذهبية تكون في مستوى مرتبة الزائر الذي نال شرف شرب القهوة مع الداى، وتجمع هذه المبالغ في صندوق مغلق محفوظ في منزل الداى الخاص،

¹ - عبد الله حمادي: "جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان"، مجلة المصادر، ع06، الجزائر، 2002، ص271.

² - سلفا توري بون: "وضع الجاليات الأوروبية بالمغرب"، مجلة الأصالة، مج10، ع25، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012، ص139.

³ - وليام شالر، المصدر السابق، ص100.

⁴ - نفسه.

ويقوم سعادة الداي بإضافة مبلغ من ماله الخاص إلى محتوى الصندوق، ثم يوزع على الأسرى مرتين في السنة...¹.

ولا ريب أنّ الأسرى المسيحيين في الجزائر قد تمت معاملتهم بمقتضى ما يكفله الدين الإسلامي للأسير منذ زمن بعيد، ولم يشذ حكام الجزائر عن هذه القاعدة طوال الحكم العثماني، وهذا باعتراف الأسرى المسيحيين أنفسهم، وما تجدر الإشارة إليه هو ذلك السكوت الكلي من طرف المصادر العربية عن وضعية الأسرى الجزائريين في السجون الأوروبية²، وكذا عن وضعيات التعذيب والتشريد التي كان الجزائريون خاصة والمسلمين عامة يتعرضون لها على أيدي قراصنة ولصوص البحر الأوروبيين³.

كانت عمليات جمع الأموال لافتداء الأسرى في الجزائر تتم من طرف الكنيسة المسيحية بواسطة جمعيات مختلفة^{*}، وانتهجت هذه الجمعيات عدة طرق وأساليب لتحقيق أهدافها حيث كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى، ومن مدينة إلى مدينة لجمع الأموال، وتقوم بوصف حالة الأسرى وصفا مبالغاً فيه، حتى يستعطفوا الناس الذين كانوا يرمون بالذهب والفضة في الأواني، وبرز الدجالون المتخفون في زي الرهبان لجمع الأموال كذلك بتقليد هذه الطريقة غير المشروعة، لقد كان ذلك ينم عن سذاجة أولئك المتعاطفين غير المتبصرين⁴.

لقد كان انعقاد مؤتمر فيينا 1815م فرصة سانحة للتنديد بأعمال القرصنة الجزائرية وأوضاع الأسرى المسيحيين، كما ورد في مذكرة سيدني سميث المقدمة للمؤتمر، حيث ألح هذا الأخير على وضع حد لقضية الاسترقاق بقوله: «... ففي الوقت الذي تناقش فيه وسائل إلغاء تجارة الرقيق الأسود في سواحل إفريقيا الغربية، فإنه لمن الدهشة أن لا ننتبه إلى الساحل الشمالي في هذه القارة الذي يقطنه الأتراك، الذين يضطهدون جيранهم ويخطفونهم ليستخدموهم في جدف سفنهم، إنّ مثل هذه الأعمال لا تغضب

¹- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص203.

²- للمزيد من التفاصيل عن وضع الأسرى الجزائريين في أوروبا أنظر:

Belhamissi (M), *Les captifs algériens et L'Europe chrétienne 1518-1830*, E.N.A.L, Alger, 1988, p113.

³- عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص270.

^{*} مثل جمعية الإخاء الفرنسية وجمعية بالرمو حيث استطاع أنصار هذه الجمعيات الحصول على قرار من البابا بجمع التبرعات في جميع الكنائس بداية من سنة 1778.

⁴- جون.ب. وولف، المرجع السابق، ص216.

الإنسانية فحسب بل إنها تعرقل التجارة، إذ أصبح من الصعب اليوم أن يبحر بحار في البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي على سفينة تجارية دون أن يتعرض لاعتداءات القراصنة»¹.

لم تكن المذكورة هي ما كان لدى سميث يدل على حقه بل أسس جمعية لمحاربة القراصنة، وليكسب الدعم اللازم والتأييد لجمعية أطلق عليها اسم جمعية "فرسان محرري الرقيق الأبيض في شمال إفريقيا"، إذ شكلت هذه الجمعية من فرسان النظم الإمبراطورية والملكية والشخصيات المسيحية البارزة، لم يكن هدف سميث هو العمل فيما أوردناه سابقا بل أراد إعادة بعث نظام فرسان القديس يوحنا من جديد، انطلاقا من الدور الذي مثله هؤلاء في محاربة الإسلام والمسلمين².

وجد هؤلاء الفرصة سانحة لإفراغ غضبهم من خلال ما توصل إليه المؤتمرون، إذ حاولوا نقل انشغالاتهم إلى الباب العالي والسلطان العثماني الذي أدان أعمال البحرية الجزائرية، وطريقة معاملتها للأسرى المسيحيين، وما يدل على ذلك أنّ سفيرا مسيحيا قام بتقديم عريضة يشتكي فيها إلى السلطان العثماني من اعتداءات الجزائريين، الأمر الذي جعل السلطان محمود الثاني يوجه فرمانا إلى داي الجزائر يأمره بإطلاق سراح جميع الأسرى التابعين لدولة السفير السابق، ومما جاء على لسان السلطان نذكر: «... فيينما هم يجولون في البحر لأجل التجارة إذ بسفينة من قرصان الجزائر الغرب تعرضت لهم فأخذت من عند القبطان ونهبتهم ... ولذا يجب عليكم تخلص هؤلاء من الأسر، وهذا هو الباعث على طلب صدور أمري الشريف هذا، وليكن في معلومك أنه بمجرد وصول أمري هذا إليك تطلق سبيل الأسارى المساكين ...»³.

كانت قضية الأسرى قضية شائكة بين الدول الأوروبية والإيالة الجزائرية، رغم أنه تقليد قديم وجد وتبلور وفق الحروب والصراعات، وخضع للتطورات التي كانت تشهدها منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور الحديثة، وتمكنت هذه المسألة من تمثيل دور أساسي في سياسة بريطانيا الخارجية بعد المؤتمر السابق الذكر، حيث كانت أحد الاسباب الرئيسية لحملة "اللورد إكسموث"⁴، وهو ما تجلى بوضوح في بنود معاهداته مع الجزائر

¹ - علي تابست، مذكرة سيدني سميث...، المرجع السابق، ص 168.

² - أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني...، المرجع السابق، ص 148.

³ - مجموعة 3205 الملف الأول العلبة رقم 1، الوثيقة رقم 27.

⁴ - Belhamissi (M), marine..., T2, op.cit, p71.

ثانيا- القضية الجزائرية في مؤتمر فيينا 1815م

اجتهدت الدول الأوروبية في فيينا أواخر سنة 1814م وبداية 1815م، للنظر في الخلافات، وإيجاد تسوية لقضايا أوروبا الناتجة عن الحروب النابليونية، إذ عالج المؤتمر قضية القرصنة المغاربية، وقام ممثلو فرسان مالطة* بتسليم عدة مذكرات إلى رؤساء الوفود يطالبونهم فيها بإعادة تأسيس نظامهم القديم، وإيجاد مقر لهم تجتمع فيه كل الأساطيل المسيحية لمواجهة قراصنة الدول المغاربية ومحاربتهم خاصة الجزائريين منهم، ويذكر أن قضية القرصنة المغاربية لم تكن ضمن جدول أعمال المؤتمرين، فقد نوقشت كقضية جانبية فقط على أنه تم منحها اهتماما خاصا.

برز في هذا الصدد الأدميرال الإنجليزي «سيدني سميث»¹ "S. Smith" الذي سلم مذكرة إلى المؤتمرين مستندا على تقارير لتجارب سابقة اكتسبت خلال المعارك البحرية التي شهدتها، لذا كان سيدني سميث شديد الحماسة في مذكراته من أجل النيل من قراصنة الدول المغاربية في هذه السانحة قبل أي وقت آخر¹.

* فرسان مالطة أو فرسان يوحنا نظام ديني عسكري حيث طردوا أثناء الحروب الصليبية من القدس فاستقروا بجزيرة قبرص وعرفوا باسم الاستبتارية، وبعد ذلك انتقلوا إلى جزيرة رودس بعد أن طردوا منها اليونانيين وعرفوا هنالك بفرسان رودس، إلا أن السلطان العثماني سليمان القانوني قام بطردهم من هناك في عام 1522 فلجؤوا بعدها إلى جزيرة مالطة سنة 1530م، وبقوا هناك حتى فرق نابليون صفوفهم سنة 1798م، للمزيد أنظر: Garrot, op.cit, p466.

* ولد في 03 جوان 1771 بولاية وودفورد، درس في نيو كلوليج بأكسفورد أنشأ جريدة إيد بنبرج ريفيو سنة 1808 بالاشتراك مع هنري بروجهام، شارك بقلمه في هذه المجلة مدة 25 سنة، كما نشر أول كتاب له سنة 1800م واشتهر اسمه عن طريق المقالات التي كان ينشرها في مجلته، انتقل إلى لندن سنة 1803 وأصبح محاضرا في الفلسفة بالمعهد الملكي، كان ضمن الجيش البريطاني الذي حارب نابليون في مصر سنة 1798، وقد قدم هذه المذكرة إلى مؤتمر فيينا في 31 أوت 1814 لدراسة الوسائل والطرق الناجحة للقضاء على قراصنة البلدان المغاربية، توفي سنة 1845، للمزيد حول هذه الشخصية أنظر، علي تابست: "مذكرة سيدني سميث ضد النشاط البحري لدول المغرب"، مجلة الدراسات التاريخية، ع7، الجزائر، 1993، ص167.

¹ - أرزقي شويتم، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر 2011، ص147.

لقد أصبحت الجزائر والإيلات المغاربية مهددة من طرف التكتل الأوروبي المنبثق من قرارات هذا المؤتمر تحت غطاء محاربة القرصنة واللصوصية، إنّ هذا الموضوع قد مثل إحدى الركائز الأساسية التي قامت على أساسها حملة "اللورد إكسموث" ضد الجزائر، وعلى هذا الأساس أعتبر ملف القرصنة عاملا أساسيا دفع ببريطانيا إلى توجيه حملتها على الجزائر بقيادة "اللورد إكسموث" بغية تحقيق هدفين رئيسيين بالنسبة لها: أولهما يتمثل في إزاحة الجزائر وبحريتها من عرض البحر الأبيض المتوسط خدمة للمسيحية وأوروبا، وثانيهما فتح المجال لنفسها لكي تسيطر على مضائق البحر الأبيض المتوسط من جبل طارق إلى صقلية.

خاتمة

ومن خلال ما سبق ذكره يمكننا أن نؤكد على أنّ ظاهرة القرصنة التي اهتمت بها الجزائر لم تكن سوى ذريعة لمحاولة التدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية للجزائر من أجل وضع حد لدورها الريادي الذي كانت تلعبه في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، فالجزائر كانت تمارس نشاطها البحري تحت تأثير العامل الديني وتوجيهه، وأعطت أروع الأمثلة في التسامح والتعايش مع الآخر.

وإن سلمنا جدلا بأنّ الجزائر قد مارست لصوصية بحرية أو قرصنة، فإننا نقول إن الأوروبيين هم من أجبروا الجزائريين على عمل المثل في إطار سياسة رد الفعل. وبالرغم من النشاط البحري المتزايد للبحرية الجزائرية خاصة خلال العهود الأولى لتأسيس الإيالة إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال وصف النشاط الجزائري بالقرصنة لوجود ضوابط وأعراف كانت تنقيد بها البحرية الجزائرية تبعدها كل البعد عن عمليات السلب والنهب والاعتداء، ولعل أهم ضابط كان يقيد النشاط الجزائري ويبعد عنه صفة اللصوصية المرادفة للقرصنة هو الضابط الشرعي والولاء الديني

لقد كان لمؤتمر فيينا سنة 1815م بالغ الأثر على مستقبل البحرية الجزائرية، حيث منذ سنة 1815م بدأ العد العكسي نحوى التقهقر والانحدار بالنسبة لقطع الأسطول الجزائري نتيجة لما خلفته حملة اللورد إكسموث من انعكاسات وتداعيات على مستقبل الإيالة الجزائرية، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الخصوص أن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816م كانت بمثابة الترجمة الفورية لقرارات الدول الأوروبية المجتمعمة في فيينا سنة 1815م

وما يمكن قوله بخصوص هذا المؤتمر الدولي أنه كان بمثابة الهيئة الدولية التي عبرت عن طموحات وآمال الدول الأوروبية خاصة تجاه القضايا التي كان يشهدها الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فيما يخص الملاحة والأسر وغيرها من الأنشطة البحرية التي اهتمت بها الإيالة الجزائرية خلال الحقبة

العثمانية ،وما فشلت فيه الدول الأوروبية تجاه الإيالة الجزائرية منفردة خلال ثلاث قرون من الزمن نجحت فيه بفضل هذا المؤتمر الذي لم شملها ووحدها سياستها ونظرتها ضد الإيالة الجزائرية

مصادر ومراجع البحث

أولاً: مصادر البحث بالعربية

- خط همايون، عدد 22556، علبة 24، رقم 184 تاريخ 1231هـ.
- خط همايون، عدد 17822، علبة 24، رقم 167 تاريخ 1231هـ.
- خط همايون، عدد 22486، علبة 24، رقم 170 تاريخ 1231هـ.
- خط همايون، عدد 22486، علبة 24، رقم 169 تاريخ 1231هـ.
- التنلاي عبد الرحمن: رحلة عبد الرحمان التنلاي التواتي، مخطوط دون رقم تصنيف، خزانة سيدي عبدالله البلبالي، ادرار، الجزائر
- المحامي محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1981
- الطرابلسي ابن غلبون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق وتعليق الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، المطبعة السلفية ومكتبها، مصر، 1349هـ

ثانياً: مصادر البحث بالفرنسية

- Devoulx (Albert), « la marine de la Régence D'Alger », **R.AF**, N°13, 1869
- Père (Dan), **Histoire de Barbbarie et de ses corsaires**, Paris, seconde édition, 1646

ثالثاً: مراجع البحث بالعربية

- أميلي حسن: "معاملة الأسرى المسيحيين في كتاب بربرية وقراصتها للأب بيار دان"، المجلة التاريخية المغربية، ع119، تونس، 2005،

أميلي حسن: "القراصنة ومعتقداتهم بشمال إفريقيا في كتاب بارباريا وقراصنتها"، المجلة التاريخية المغربية، ع115، تونس، 2004، ص169.

حمادي عبد الله: "جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان"، مجلة المصادر، ع06، الجزائر، 2002

ديكتو ديصوريس: تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1989

الزبيري محمد العربي: "مقاومة الجزائر للتكتل الأوروبي قبل الاحتلال"، مجلة الأصالة، ع12، الجزائر، 1973

سلفا توري بون: "وضع الجاليات الأوروبية بالمغرب"، مجلة الأصالة، مج10، ع25، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012

فاطمة الزهراء سيدهم: "موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة كان التاريخية، ع13، دار الكتب والوثائق القومية المصرية، مصر، 2011

قدوري عبد المجيد: المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15-18 م مسألة التجاوز، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000

المنصور محمد: المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792-1822م)، ترجمة محمد حبيدة، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006

هلايلي حنفي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة 1815-1830 م، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2007

رابعا: مراجع البحث بالفرنسية

Belhamissi (M), **Histoire de la marine Algérienne 1516-1830**, Alger, Enal, 1983,

Belhamissi(M), **Alger L'Europe et la guerre secrète 1518-1530**, Alger, édition Dahlab, 1999.